العدد 46 | آذار/ مارس | 2016

الإبْداعُ والاتِّباعُ

في تحْريمِ وتجْريمِ "الرِّبا وَحُوبِهِ"
سُوسِ النَّخْرِ الاقتِصاديِّ

محمد ياسر الدباغ
مدقق لغوي

بسمِ اللهِ المنّانِ الدَّيَّانِ، والحمدُ له سُبحانَه وتعالى الحيِّ القيُّومِ الرَّزَّاقِ؛ مَن أحلَّ الطيِّباتِ، وذمَّ وحرّمَ الخبائثَ وَالفواحشَ ما ظهَرَ منها وما بَطَنَ، وصلّى اللهُ وسلّمَ على سيِّدِنا مُحمَّدٍ مَن تركَنا على المحجَّةِ البيضاءِ ليلُها كنَهارِها لا يَزيغُ عَنها إلاّ هالكٌ، ورَضِيَ اللهُ عن الآلِ والصَّحابَةِ والتابعينَ ذَوي الطُّهْرِ والعَفافِ والهُداةِ الأشْرافِ، وعلى مَن سارَ على دَربِهِم وتَخلَّقَ بأخلاقِهِمْ ما تَعاقبَ الليلُ والنهارُ، وعلينا مَعهُم برحمَتِكَ يا أرحمَ الرَّاحمينَ، وبعدُ: بادِئَ ذي بدءٍ لابُدَّ من معرفةِ "الرِّبا" و"الحُوبِ" لُغةً وشرعاً وإشارةً:

* الرِّبا لغةً: الزيادةُ، والنَّماءُ، والعُلوُّ والارتفاعِ، والشَّرَفُ.

* الحُوبُ: الظلمُ والإثمُ والهلاكُ، وتجاوزُ الحدِّ المشروعِ.

* الرِّبا شرعاً: فَضْلٌ خالٍ عَن عِوَضٍ – ولو حُكْماً – بمعيارٍ شرعيٍّ، حاصل لأحدِ المتعاقدينِ في المعاوَضةِ.

* الرِّبا إشارةً: رِكْسٌ، ورِجْزٌ، ورِجْسٌ، بوارُ الدَّارِ؛

إنّ المالَ ما تميلُ إليه النفسُ البشريَّةُ وما تتطلَّعُ إليه أفئدَةُ البريةِ قالَ اللهُ تعالى: (وتُحِبُّونَ المالَ حُبّاً جماً) (الفجر: ٢٠)؛ لذا جعلَ اللهُ تباركَ وتعالى المالَ "وَسيلةً لا غايةً، وسبَباً لا مُسبِّباً" تلبيةً لحاجاتِ ومُتطلَّباتِ الحياةِ الدُّنيا للوصولِ إلى الدارِ الآخرةِ قال تعالى: (وابْتَغِ فيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَأَحْسِنْ كَما أحْسَنَ اللهُ إلَيكَ وَلا تَبْغِ الفَسادَ في الأرْضِ إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ) (القصص:٧٧). (شيئانِ إذا أحْرزْتَهُما لَمْ يَضُرّكَ ما ضَيَّعْتَ بَعْدَهُما: دِينَكَ لِمَعادِكَ، ودِرْهَمَكَ لِمَعاشِكَ).

فالدِّينُ منهاجُ اللهِ عزَّ وجلَّ لِبني الإنسانِ، والدِّرهَمُ وسيلةٌ يتوصَّلُ الناسُ من خلالِها إلى ما تَتُوقُ إليه أنفُسُهُمْ لإشْباعِ رَغَباتِهِمُ المباحةِ والمتاحةِ – الحلالِ منها، أو الحرامِ – وذلك حَسبَ طبيعةِ ونزعةِ كلِّ إنسانٍ بما فيه من نوازعِ الخيرِ والشَّرِّ، وأيُّهُما غَلَبَ الآخَرَ كان الحُكْمُ على الإنسانِ من خلالِه فـ "السعيدُ مَن سَعِدَ بمَرضاةِ اللهِ، وأقامَ شَرْعَ اللهِ في نفْسِه وأهلِه وبلدِه"، و"الشَّقيُّ مَن تنكَّبَ شَرْعَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وتنكَّرَ لِسُنَّةِ رسولِ اللهِ مُحمَّدٍ" صلّى اللهُ عليه

وسلَّمِ– ولو ظَهَرَ، أو تَباهَى وافتخَرَ أمامَ الملأ أنّه من السُّعداء؛ بل الحقيقةُ الواضحةُ أنّه من الأشقياءِ في الدُّنيا قبلَ الآخرَة. قالَ تعالى: (يُعرفُ المجرمون بسِيْمَاهُمْ..) (الرحمن: ٤١).

إنّ الرِّبا والزّنا صنوان؛ بل قَرنان من قُرونِ إبليسَ اللعين، لا يَتشبَّثُ بهما إلاّ كُلُّ مُعْتَدٍ أثيمٍ؛ مُعْتَدٍ على نَفْسِه وَبَني جِنْسِه، وآثِمٌ في دُنياهُ وآخرَته. لقد حُرِّمَ الرِّبا والزِّنا في الشرائعِ السَّماويَّة الصَّحيحة– غَيرِ المحرَّفة والمغيَّرَة والمبَدَّلَة– وقد ثَبَتَ تحْريمُ وتجْريمُ ذلكَ في القُرآنِ الكريمِ والسُّنَّة المطهَّرَة والإجماعِ كما ذَكَرَ كثيرٌ من الأئمَّة المجتَهدينَ الأعلامِ؛ كـ(الماورديِّ، والنوويِّ، والقرطبيِّ) وغيرِهم. وإنّ إنكارَ ذلك يُعتبَرُ كُفْراً في دينِ اللهِ عزَّ وجلَّ. قال اللهُ تعالى: (.. وَأحَلَّ اللهُ البَيعَ وَحَرَّمَ الرِّبا..) (البقرة: ٢٧٥) وقال اللهُ عزَّ وجلَّ: (يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إنْ كُنْتُمْ مُؤمنينَ) (البقرة: ٢٧٨)

وقال صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ:(ألاَ إنَّ كُلَّ رِباً من ربا الجاهليَّةِ مَوضُوعٌ، لَكُمْ رُؤوسُ أمْوَالِكُمْ لا تَظلِمُونَ ولاَ تُظلَمُونَ) (رواهُ أبو داوودَ في سُنَنه، كتاب البيوع ٢٤٤ / ٣).

وقال رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ: (درْهَمُ ربا يأكُلُهُ الرَّجُلُ وَهُوَ يَعْلَمُ أشَدُّ مِنْ ستٍّ وثلاثينَ زنيَةً) (أخرَجَهُ أحمدُ في المسنَد، باب البيوع: ٢٢٥ / ٥) وغيرُه.

وقال عليه الصلاةُ والسلامُ: (الرِّبا ثلاثةٌ وسَبْعُونَ باباً، أيْسَرُها مِثْلُ أنْ يَنْكِحَ الرَّجُلُ أُمَّهُ) (أخرجَهُ الحاكمُ باب البيوع ٢ / ٣٧ وقال صحيحٌ على شرطِ الشيخينِ ولم يُخَرِّجاهُ، وصَحَّحَه البوصيريُّ أيضاً في مصباحِ الزّجاجة ٣ / ٣٤)

"لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ آكِلَ الرِّبا ومُوكِلَهُ وكَاتِبَهُ وشَاهِدَيه، وقالَ: هُمْ سَواءٌ" (أخرجَه مسلمٌ في صحيحه ٣ / ١٢١٩)، واللعنُ كمَا هو مَعلومٌ طَردٌ من رحْمَةِ اللهِ تعالى، وإبْعادٌ عن رِضْوانه ويقتضَي الحرمةَ، وهذا يدلُّ على شَناعةِ فِعْلِ صاحبه، ويَستَوجِبُ الإثمَ والعقوبةَ دُنيا وآخرةً؛ فَكُلُّ مَن رَضِيَ بذَلكَ عُدَّ ظالماً لنَفْسه، ومُجْرِماً في حقِّ غَيرِه؛ فاللهُ عزَّ وجلَّ هو الحيُّ القيُّومُ الرَّزَّاقُ يَرزُقُ الكائناتِ كُلَّها، ومنها الإنسانُ المكرَّمُ الذي مَنَّ عليه بالإيجادِ والإمدادِ، وخَزائنُه لا تنفَدُ، وإنّ التعامُلَ بالرِّبا –جَليِّه وخَفيِّه– منازعةٌ للهِ في صِفَةِ الرِّزقِ، وتعالٍ على شَرعه ودِينه.

إنّ الرِّبا له أربابُهُ التي تُعبَدُ من دُونِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ وذلكَ أنّ طاعتَهُمْ من دونِ اللهِ تعالى عبادةٌ لَهُمْ، وإعراضٌ عن شَرعِ اللهِ جلَّ جلالُه؛ كيفَ لا وَهُمْ يَلْبَسُونَ جُلودَ الضَّأنِ وقُلوبُهم قلوبُ الذِّئاب، وقد جُبِلَتْ أنْفُسُهُم على الجَشَعِ والطَّمَعِ، والابْتزازِ والانْتهازِ؛ حتّى لا تقومَ للبلادِ المُستَعْبَدَة قائمةٌ لإقامةِ الحياةِ وفقَ شَرعِ اللهِ تباركَ وتعالى، والعدوُ – كانَ وما زالَ– يتربَّصُ بالأُمّةِ الإسلاميَّةِ والعربيَّةِ والشُّعوبِ المستَضْعَفَةِ الدَّوائرَ، يَنخُرُ باقتصادِ العبادِ وموارِدِ البلادِ (فساداً وإفساداً)، وله أذرُعُهُ الأخْطَبُوطيَّة في بِقاعِ العالَمِ قاطبةً؛ فَهُمْ مُروِّجُو الإلحادِ والفسادِ الماليِّ والأخلاقيِّ (ربا وزنا..) وناشِرو الفواحشِ ما ظَهَرَ منها وما بطنَ.

قال تعالى: (الَّذِينَ يأكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إلاّ كمَا يَقومُ الذي يَتَخبَّطُهُ الشَّيطَانُ مِنَ المسِّ ذَلِكَ بأنَّهُمْ قالُوا إنّمَا البَيعُ مِثْلُ الرِّبا) (البقرة: ٢٧٨) . قال رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "إذا ظَهَرَ الزِّنا والرِّبا في قريةٍ فَقَدْ أحَلُّوا بأنْفُسِهِمْ عَذابِ اللهِ" (رواهُ الحاكِمُ وقال: صحيحُ الإسنادِ)

وقال عليهُ الصلاةُ والسلامُ: "بينَ يَدَيِ السَّاعَةِ يَظْهَرُ الرِّبا والزِّنا والخَمْرُ" (رواهُ الطبرانيُّ ورُواتُه رواةُ الصحيحِ) . إنَّ الترهيبَ الرَّبَّانيَّ والزَّجْرَ الإلهيَّ في القرآنِ الكريمِ يَقْشَعِرُ منهُ بَدَنُ المسلمِ؛ كيفَ لا وقَدْ جَعَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ المرابي خارِجاً على اللهِ تعالى، ومُحارِباً لَهُ ولِرَسُولِه الكريمِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ؛ ويكأنَّ (الزِّنا والرِّبا والخَمَرَ) فواحِشَ تخامِرُ عَقْلَ مُتعاطِيها فَتُسْكِرُه فتُغْلِقُ منافذَ الإحساسِ، وتُعطِّلُ مراكزَ الشُّعورِ الإنسانيِّ لدَى المرابينَ والزُّناةِ وشاربي الخَمْرِ، كما لا يغيبُ عن بالِ كثيرٍ من الناسِ أنَّ أعداءَ اللهِ عزَّ وجلَّ قد دقُّوا أسافينَ الفسادِ ببلادِ الإسلامِ والعُروبةِ والبلادِ المتخلِّفةِ (أخلاقيّاً وحضاريّاً)؛ حتى تحوَّلَ كثيرٌ من أبناءِ البلادِ إلى مُتبلِّدي الشُّعورِ وفاقدي الإحساسِ، وصارَ (التعامُلُ بالرِّبا، وممارَسةِ الرَّذيلَةِ، وشُرْبِ الخمورِ، والأشربةِ المخدِّرةِ) شيئاً مألوفاً ومُعتاداً؛ مصداقاً لقولِه تعالى: (كَلاّ بلْ رَانَ على قُلُوبِهِمْ ما كَانُوا يَكْسِبُونَ* كَلاّ إنَّهُم عَنْ رَبِّهِمْ يَومَئِذٍ لمَحْجُوبُونَ* ثُمَّ إنَّهُمْ لَصَالُو الجَحِيمِ* ثُمَّ يُقالُ هَذا الّذي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) .

إنّ التعامُلَ بالرِّبا بأشكالِه المختلفَةِ –القَديمةِ منها والحديثةِ– يُعتبَرُ كـ (السُّوسِ أو الفَيروسِ) الذي ينخُرُ ويَسْري في كِيانِ الأُمَّةِ كُلِّها، ويَحْمِلُ في (طيَّاتِه، ومُورِّثاتِه) عواملَ الهدمِ (الإنسانيِّ، والأسريِّ، والدوليِّ)، وفيهِ نَزْعٌ وقضاءٌ على عواملِ (الرأفةِ، والشَّفَقةِ، والأخوَّةِ) بينَ الناسِ؛ فالغنيُّ مُطالَبٌ (شرعيّاً وإنسانيّاً) بمدِّ يدِ العَونِ والمساعدةِ والتراحُمِ، وعليه أنْ يُقرِضَ الفقيرَ والمحتاجَ والمضطرَ، وعلى الأُمَّةِ بأسْرِها (أفراداً، وجماعاتٍ، ودولاً) أن تُيَسِّرَ ذلك– قَدْرَ (الوسْعِ، والطاقةِ، والاستطاعةِ)–، وعلى الأُممِ أن تُذْعِنَ للحَقِّ لِما فيه (صَلاحُها ونَجاحُها وفَلاحُها)؛ فـ"لا سعادةَ ولا إسعادَ إلاّ بتطبيقِ شَرْعِ اللهِ تباركَ وتعالى"، وأيُّ سعادةٍ بغَيرِه فهيَ سَعادةٌ مَوهُومةٌ وآنيَّةٌ زائلةٌ. وما المعيشَةُ الضَّنْكُ إلاّ نتائجُ لما حَصَدَتْهُ أنْفُسُهُم جرَّاءَ أعمالِهِم المعرِضَةِ عن شَرْعِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

إنَّ فَتْحَ البُنوكِ الرِّبويةِ، وتيسيرَ التعامُلِ بالرِّبا (الظَّاهِرِ)، أو (المستَتِرِ) وراءَ أقنعةٍ مُموّهةٍ، وأسواقٍ سوداءَ– تَدُلُّ على وُجُوهِ أصحابِها الكالحَةِ وقُلوبِها المالحةِ، ويَحملُ في ثَناياهُ مَخالبَ الذِّئابِ– وإنْ ظَهَرَتْ بأفْواهِ الحمْلانِ الوديعةِ، وفيه تحقيقٌ لـ (نزَغاتِ الشيطانِ، ونزَعاتِ وشَهَواتِ بني الإنسانِ) قالَ اللهُ تعالى: (يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ* واللهُ يُرِيدُ أنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهواتِ أنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً* يُرِيدُ اللهُ أنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإنْسَانُ ضَعِيفاً) (النساء: ٢٨ / ٢٧ / ٢٦) . وقال رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "يأتي على النَّاسِ زَمانٌ يأكُلُونَ الرِّبا؛ فمَنْ لَم يأكُلْهُ، أصابَهُ مِنْ غُبارِه" (أخرجه أبو داوود في سُننه: ٣ / ٣٤٢) .

إنَّ الإنسانَ الواعيَ الحصيفَ له (مَنهَجٌ قويمٌ يَهديه، ومُعلِّمٌ مُرَبٍّ يُرْشِدُهُ)؛ لذا فـ "العِلْمُ لا يُؤخَذُ إلاّ مِنْ عالمٍ ثِقَةٍ، وكِتابٍ ثِقَةٍ" ومِن ثَمّ تأتي التجاربُ الإنسانيَّةُ، وقَد ضَرَبَ اللهُ عزَّ وجلَّ الأمثالَ في القرآنِ الكريمِ مِنْ لَدُنْ آدمَ أبي البَشرِ مُروراً بأبي الأنبياءِ إبراهيمَ الخليلِ وُصولاً إلى سيِّدنا مُحمَّدٍ رسولِ اللهِ عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ، ويأتي مِن بَعْدِهم (الصَّحابةُ الكِرامُ، والأئمَّةُ الأعلامُ، والمجتهِدُونَ المصلِحُونَ– فُقهاءُ الدِّينِ وأساتذةُ الدُّنيا–) مَن فتَحُوا العالَمَ (شَرقاً وغَرباً، رَحْمةً وحَضارةً) لِتتَعَلَّمَ البَشريّةُ مِن دُرُوسِهِم العِبَرَ الأخلاقيَّةَ والماليَّةَ والاقتصاديَّةَ، وما زالَ العالَمُ بأسْرِه يَستَنيرُ بآرائِه، ويُطبِّقُ اجْتِهاداتِهم لِما رأى فيها مِن النَّظرَةِ البعيدةِ والرُّؤيةِ الثاقبةِ (مالِيّاً واقتصادِيّاً، استثمارِيّاً وحضارِيّاً)،

أمّا الإنسانُ (الغافِلُ، أو المتغافِلُ) عن الحقِّ والحقيقةِ له (هوىً يَهديه، وشَيطانٌ يُضِلُّهُ) وهذا مَثَلُهُ كَمَثَلِ الإمَّعَةِ و(الرِّعاعِ الهَمَجِ أتْباعِ كُلِّ ناعِقٍ) فيستمِدُّ نُورَه؛ بلْ نارَه مِن أربابِ الحِيَلِ والتحايُلِ على شَرْعِ اللهِ عزَّ وجلَّ، واستغباءِ البَشرِ؛ فهذا التحايُلُ الإبليسيُّ والشيطانيُّ فيه الحتْفُ الإنسانيُّ والهلاكُ البشريُّ، ولا يخفَى مدى الهلاكِ، وحجمِ الاهْتِلاكِ –الذي حَصَلَ وما زالَ يحصلُ– جرَّاءَ التعامُلِ بالرِّبا وتعاطِي الخمْرِ وتسهيلِ سُبُلِ الزِّنا والعياذُ باللهِ تعالى.

وقَد نهَى رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن الاستنارةِ بنارِ المشركينَ:

"لا تستضيئوا بنَارِ المشركينَ.." أي: لا تأخذوا بآرائهم –على ما هيَ عليه–؛ بلْ لابُدَّ مِن (التثبُّتِ، والتَّبيُّنِ، وأخْذِ الحَذَرِ)؛ لما تنطوي عليه أنْفُسُهُمْ من (الحِقْدِ، والحسدِ)، والتربُّصِ بالأُمَمِ.

إنَّ آكِلَ الرِّبا يقومُ مُضْطَرِباً هاذِياً (لا هادِياً) كحالِ المَمْسُوسِ الذي أفْسَدَ الشَّيطانُ عَقْلَهُ بِضَرْبِهِ لَهُ، وَمَسِّهِ. وجُلُّ المفسِّرينَ على أنَّهُ القيامُ مِن القَبْرِ كما أوْرَدَ ذلك ابنُ الجوزيِّ في كتابِه القيِّمِ الماتِعِ (زادِ المسيرِ في علمِ التفسيرِ) رحِمَه اللهُ تعالى.

وقد قرأَ الصَّحابيُّ الجليلُ عبدُ اللهِ بنُ مَسعُودٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ:(الَّذينَ يأكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ– يومَ القيامَةِ– إلاّ كَمَا يَقُومُ الذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيطانُ مِنَ المسِّ..) (تفسير القرآن العظيم ابن كثير٣٢٧ / ١)؛وأيُّ فضيحةٍ أشدُّ مِن الفضيحةِ أمامَ الأشهادِ وأمامَ ربِّ العبادِ. قال اللهُ تعالى: (يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا وَيُربي الصَّدَقاتِ)(البقرة: ٢٧٦) والمحقُ هُوَ: الإبطالُ، والضَّياعُ، وإذْهابُ البَركَةِ، وعَدَمُ الهناءِ، والتَّسلُّطِ مِنْ قِبَلِ (السَّارِقِينَ، أو قُطّاعِ الطَّريقِ، أو حادثٍ)؛ فيضيعُ المالُ فلا يَهْنأ بِه مَنْ تعامَلَ به؛ بلْ يَصْرِفُه دَفْعاً لِمَصائِبَ وقَعَتْ له جرَّاءَ تعاطِيه الرِّبا، وقد جاءَ في الحديثِ عن ابنِ مَسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ يَرفَعُه): الرِّبا وإنْ كَثُرَ فإنَّ عاقِبَتَهُ تَصيرُ إلى قُلٍّ) (رواهُ الحاكمُ في مُستدركِه ١١ / ٢) هذا في الدُّنيا وهو كَسْبٌ خَبيثٌ حرامٌ؛ لِمَ لا واللهُ تعالى يقولُ: (قُلْ لا يَسْتَوي الخَبيثُ والطَّيِّبُ وَلَو أعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخَبيثِ) (المائدة: ١٠٠). أمّا في الآخرَةِ فقَد وَرَدَ عنْ ابنِ عبَّاسٍ كما نَقلَ الإمامُ القُرطبيُّ: (أنّ آكِلَ الرِّبا لا يُقْبَلُ مِنْهُ صَدَقَةٌ ولا حَجٌّ ولا جِهادٌ ولا صِلَةُ رَحِمٍ) (الجامع لأحكام القرآن ٣٦٢ / ٣).

إنّ على الجاهليَّات (البَسيطة والمركَّبَة، المحليَّة والعالَميَّة) أن تَستفيقَ من رُقادها الطَّويل، وتنهضَ من كَبْوَتها؛ لتَقُودَ الأُممَ بشَرْعِ اللهِ عزَّ وجلَّ وُصُولاً إلى بَرِّ الأمانِ والسلامِ، وإسعادِ بني الإنسان؛ فالرِّبا فيه من العَداوةِ للهِ ورَسولِه في مَقامٍ ينبغي مُحارَبَتُه، وفيه إعلانٌ للحربِ على اللهِ تعالى ولِرسولِه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.

إنَّ قبيلةَ ثَقيفٍ في الجاهليةِ الأُولى عندَما سَمِعَتْ قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ – وكانتْ تُربي– أذْعَنَتْ وقالتْ:(لا طاقَةَ لنَا بحَرْبِ اللهِ ورَسُولِه) (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٦٤/٣) والحَرْبُ منَ اللهِ عزَّ وجلَّ لِمَنْعِ الرِّبا لا لِكُفْرٍ من المُرابي. و(السَّعيدُ مَن اتَّعَظَ بغَيرِه).

ومن الرِّبا الذي (غفلَ، أو تغافلَ) عنهُ كثيرٌ من الناسِ في بُيوعِهم ومُعامَلاتِهم "غَبنُ المُسترسِل"؛ فقَد أخرجَ البيهقيُّ عن جابرٍ رضيَ اللهُ عنهُ:(غَبنُ المسْتَرْسِلِ ربا) سُنن البيهقي ٣٤٩/٥ ووَرَدَ عند غَيره. والمستَرْسِلُ مَن لا يَعْرِفُ (أسعارَ السِّلَعِ، أو جَودَتِها، أو رداءتِها) فيقع النَّقْصُ في حَقِّه (ثمناً، أو جَودةً).

وكذلك "بَيعُ النَّجْشِ" فقَد وَرَدَ عن ابنِ أبي أوْفى رَضيَ اللهُ عنهُ مَوقُوفاً:(النَّاجِشُ آكِلُ الرِّبا خائِنٌ) (أخرجَهُ البُخاريُّ في صَحيحه ٧٠١/٢) و"النَّجْشُ": أنْ يَكْذِبَ في ثَمَنِ ما يَبيعُ، أو فيما طُلِبَ منْهُ به.

ومن الرِّبا المعنويِّ "الاستطالةُ في عِرْضِ المسلِمِ"؛ فقَد وَرَدَ عنْ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضيَ اللهُ عنهُ عن النَّبيِّ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ:(الرِّبا ثلاثَةٌ وسَبْعُونَ باباً، أيْسَرُها مِثْل أنْ يَنْكِحَ الرَّجُلُ أُمَّه، وإنّ أرْبَى الرِّبا عِرْضُ الرَّجُلِ المسْلِمِ) (أخرجه الحاكم ٣٧/٢)؛ فَعِرْضُ الرَّجُلِ المسْلِمِ ليس مالاً، ومعَ ذلكَ كانَ محلًّا للرِّبا بنَصِّ الحديثِ الشريف، وكأنّ الجامعَ بينَ معنى قولِه صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "وإنَّ أرْبَى الرِّبا عِرْضُ الرَّجُلِ المسلِمِ" وبينَ الرِّبا المحرَّمِ المعروفِ هو (الزيادَةُ، والتَّجاوزُ) أو –ربَّما واللهُ تعالى أعلَى وأعلَمُ–: أنَّ الرِّبا فيه هَدْمٌ للرُّكْنِ الماليِّ والاقتصاديِّ، والاستطالةُ في عِرْضِ الرَّجُلِ المسلِمِ فيه هَدْمٌ لِبُنْيانِ الرَّحمنِ؛ ألاَ وهُوَ الإنسانُ المخلُوقُ المكرَّمُ المستخْلَفُ في هذه الأرضِ لِعمارتِها لا لِهدْمِها ومعلومٌ أنّ المالَ وسيلةٌ من وسائلِ السعادةِ إنْ اغتَنَمَهُ الإنسانُ وعَرَفَ حقَّ اللهِ فيه. و(كَرامَةُ الإنسانِ أغلَى من المالِ) –فكيفَ إذا كانَ مُسلماً مُؤمناً تَقيّاً– قال تعالى: (..إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتْقاكُمْ..) (الحجرات: ١٣)؛ فالإنسانُ هو صانعُ الحضارةِ؛ بينَما المالُ لا يَلِدُ المالَ؛ لأنّه عَقيمٌ.

وكذلك وَرَدَ عن أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عن النبيِّ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "إنَّ مِنْ أكْبَرِ الكَبائرِ استِطالَةُ المرءِ في عِرْضِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ بِغَيرِ حقٍّ، ومِن الكَبائرِ السُّبَّتانِ في السُّبَّة" (أخرجه أبو داوود في سننه باب الغيبة ٢٦٩/٤؛ وذلكَ بأنْ يَسُبَّ رَجُلٌ عِرْضَ آخَرَ سُبَّةً فَيَرُدُّ الآخَرُ بِسَبِّ عِرْضِ الأوَّلِ السَّابِّ سُبَّتَينِ. هذا في حقِّ المسلِمِ –أيِّ مُسْلِمٍ– فمَا بالُكَ بالطَّعْنِ في أكابرِ الأُمّةِ من الصحابةِ والتابعينَ ومَن سارَ على منهجِ رسولِ اللهِ مُحمَّدٍ من (عُلماءَ، وفُقهاءَ، ومُجتهدينَ، مُصلحينَ، وشُهداءَ، وحُكماءَ، وأولياءَ) مَن جعَلَهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ حملَةَ هذا الدِّينِ العظيمِ، ووُرَّاثَ سيِّدِ الأنبياءِ وخاتمِ المرسَلينَ مُحمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ عليه الصلاةُ والسلامُ؛ فـ"لا قُدِّسَتْ أُمَّةٌ لَم تَعْرِفْ حَقَّ عُلَمائِها، ولَم تُعْطِ المكانةَ اللائقةَ لِحُكَمائِها"

ولله دَرُّ مَن قالَ: "العالِم بَلْسَمٌ لِمَنْ أرادَ الدَّواءَ، والفَقيهُ سُمٌّ لِمَنْ أرادَ الدَّاءَ" فـ (لُحومُ العُلماءِ مَسْمُومَةٌ)

إنَّ التجارةَ معَ اللهِ تباركَ وتعالى لها طُرُقُها المشروعَةُ وأبوابُها الواسعةُ لِمَنْ أرادَ الرِّزْقَ الطَّيِّبَ الحلالَ؛ فالإسلامُ الحنيفُ لا يُقِرُّ، ولا يَعترِفُ بالجُمودُ والتحجُّرِ (عَقلاً، وسُلوكاً) ومَنهجَ حياةٍ؛ فلا يرضَى بتجميدِ الأموالِ، وكَنْزِها، وخَزْنِها، أو دَفْنِها في باطنِ الأرضِ بأيِّ طريقةٍ كانتْ كما يَفْعَلُ أربابُ (البَطَرِ، والتَّرَفِ والجشَعِ)، ولْيَتَذَكَّرْ كُلُّ إنسانٍ (أنّ المالَ إلى زوالٍ)، وأنّ (الدُّنيا فانيةٌ)، وما خَبَرُ قارونَ عنّا ببَعيدٍ؛ لذا لابُدَّ من تقليبِ الأموالِ واستثمارِها (بيعاً وشراءً، إجارةً واستصلاحاً) فهذا جهادٌ مَشروعٌ، وهذا رِبْحٌ طيِّبٌ يُبارِكُ اللهُ فيه لِصاحبِه.

إنّ "العَمَلَ كَنْزُ الرِّجالِ"؛ فلا بُدَّ من إيجادِ المشاريعِ الإنتاجيةِ والاستثمارية، وتهيئةِ السُّبُلِ المشروعَةِ والمتاحةِ (زماناً ومكاناً وحالاً) حسبَ كُلِّ بلدٍ وطَبيعةِ أهلِه، ومُتطلَّباتِه ومُؤهِّلاتِه العِلْميَّة، مع الاستفادةِ منَ خبراتِ العُلَماءِ والخُبَراءِ، ومَواردِ أرضِه مع مراعاةِ الاستحقاقِ والضَّمانِ وصلاحيتِه وضَمانِ حَدٍّ مَقْبُولٍ من الأرباحِ حِفْظاً لِكَرامةِ الإنسانِ، وإحياءً للعملِ الخيِّرِ المبارَكِ، وتحقيقاً لِمَبدأِ الحديثِ الشريفِ: "الخَراجُ بالضَّمانِ" أخرجه أبو داوود في سننه (٣/ ٢٨٤).

إنَّ المماحَكَةَ والمكابَرةَ في قَبولِ الحقِّ والاعترافِ بـ (إبْداعِ الاقتصادِ الإسلاميِّ، وروعَةِ التشريعِ الرَّبَّانيِّ) في تحْريمِ وتجْريمِ الرِّبا (المادِّيِّ، والمعنويِّ) بأشكالِه المختلفةِ، وإنَّ تسويغَ (الرِّبا، أو الأساليبِ) الشيطانيَّةِ في المعامَلاتِ الرِّبَويَّةِ يُنافي (حِكمَةَ التشريعِ الإسلاميِّ وعَدالةَ الاقتصادِ الرِّياضيِّ) العالَميِّ، ويُعتبَرُ نخْراً وهَدْماً لحياةِ الإنسانِ المكرّمِ، وإيذاناً بحَرْبٍ من اللهِ تعالى المنتقمِ الجبَّارِ ورَسولِه المصطفَى صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال تعالى: (يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ من الرِّبا إنْ كُنْتُمْ مُؤمِنينَ * فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأذَنُوا بِحَرْبٍ منَ اللهِ وَرَسُولِه وإنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أمْوالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ) أيّ: (إنْ تبتُمْ من الرّبا فليسَ لكُم إلاّ أموالَكُم بلا زيادةٍ تأخُذُونَها من غَيرِكُمْ ولا يأخُذُ غيرُكُمْ من أموالِكمْ شيئاً).

وما أُخِذَ من أموالٍ- ربا البُنوكِ- أُخِذَتْ ونَتجَتْ عن عَقدٍ باطلٍ و(ما بُنيَ على باطلٍ فهُو باطلٌ، والعَقدُ الباطلُ لا يَنقُلُ الملكيَّةَ، وينبغي أن يُصرَفَ في مَصالحِ المسلمينَ العامَّةِ، ولا يَجُوزُ أنْ يَنتفعَ به صاحبُه بأيِّ وجْهٍ من الوُجوهِ.

كما أنّ إيداعَ الأموالِ والنقودِ في بُنوكٍ ربويَّةٍ يجعلُ من المودِعينَ أربابَ جَشَعٍ لِقاءَ خَزْنِها وكَنْزِها، ويَعودُ عليهم بالبَلادةِ والبطالةِ والكسلِ، ولم لا يَستثمرُ أموالَه التي استخْلَفَه اللهُ عليها في المشاريعِ الإنتاجيَّةِ والاستثماريَّةِ المفيدةِ للأمَّةِ؛ وهذا من الواجبِ (شرعاً وواقعاً، أفراداً وأُمَماً).

ولا يخفَى على أحدٍ أنّ (العدلَ هو قُطْبُ الرَّحى في حياةِ الإنسانِ العاقلِ)، وعليه أنْ يَدُورَ في فَلَكِ النُّصوصِ القرآنيةِ والأحاديثِ النبويَّةِ (دُورُوا مع الحقِّ أينَما دَارَ)، لا أن نَكونَ "إمَّعاتٍ" مع (القُلوبِ الزائغةِ، والأوضاعِ الجاهليّةِ، والأعرافِ الفاسدَةِ)، وعليه أن (يَعلَمَ ويُعلِّمَ) أنّه لا يَجُوزُ لِمُسلمٍ أن يطلُبَ السَّعَةَ في الرِّزْقِ وتفريجَ الكَربِ بِمَعصيَةِ اللهِ تعالى.

إنَّ الواجبَ جِدُّ خَطيرٍ؛ فعلى (العُلماءِ والفُقهاءِ، وصُنّاعِ القرارِ الاقتصاديِّ، وأهلِ الحلِّ والعَقدِ) أن يَقِفُوا وقفةَ رجُلٍ واحدٍ في وجْهِ أعداءِ اللهِ تعالى؛ فقَد حاوَلُوا قديماً – وما زالُوا يُحاوِلُون حَديثاً – أن نكونَ "إمَّعاتٍ" نُحِلُّ ما حَرَّمَ اللهُ عزَّ وجلَّ، ونُحَرِّمُ ما أحلَّ اللهُ تعالى؛ لِنتَنازلَ عن شَخصيَّتِنا الإسلاميَّةِ ونَلهَثَ وراءَ مَن أضلَّهُ اللهُ على عِلْمٍ، وغَضِبَ عليه، ولَعَنَه كما لَعَنَ المغضُوبَ عليهِم والضالّين، ومَن لَفَّ لَفَّهُمْ وتَبِعَهُمْ حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ، فَما يُسعِدُهُمْ إلاّ بأن نتخَلّى عن شرَعِ ربِّنا عزَّ وجلَّ وهَدي نبيِّنا مُحمّدٍ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال تعالى: (وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَواءً فلا تَتَخِذُوا مِنْهُمْ أولِياءَ...) (النساء: ٨٩)؛ فنُحْرَمَ الرِّيادةَ والسِّيادةَ على الأممِ، والعِزَّةَ والسَّعادةَ في الدُّنيا والآخرةِ. قال عزَّ وجلَّ: (وإنَّه لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَومِكَ وَسَوفَ تُسْأَلُونَ) وقالَ جَلَّ جَلالُه: (وإنْ تَتَولَّوا يَسْتَبْدِلْ قَوْمَاً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أمْثالَكُمْ) (محمد: ٣٨)، فـ(السعادةُ في الاتِّباعِ، والشقاءُ في الابْتِداعِ).

اللهُمَّ إنّا نسألُكَ البِرَّ وثَوابَهُ، ونَعُوذُ بِكَ مِنَ الرِّبا وَحُوبِهِ. اللهُمَّ آمِينَ.